الدراسات والبحوث



الكشوف الأثرية تتحدى الصهيونية

د. عفيف البهنسي *

العقيدة العدوانية عند الشعب المختار

الشعار المرسوم على العملة الإسرائيلية والمتمثل بخارطة إسرائيل من النيل إلى الفرات،والعلم الذي يرمز إلى المكتوب في الكنيست الإسرائيلي ضمن العبارة التوارتية التي يعدهم فيها ربهم (يَهْوَه) بهذه الأرض، لا تجعل مجالاً للشك أن إسرائيل ستمضي بالمطالبة بهذا الحق الإلهي، طالما كان التاريخ التوراتي مصَدّقاً يقوم على العقيدة من أن اليهود هم «شعب الله المختار». وفي سفر التثنية: (١٤:١) «لأنك شعب مقدس للرب إلهك. قد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً، فوق جميع الشعوب على وجه الأرض».

---

* باحث وآثاري ومفكر سوري (رئيس جمعية أصدقاء دمشق)

- العمل الفني: الفنان شادي العيسمي

ويرمــي التــوراة بجعل اليهــود شعباً مقدســاً مختاراً أن يسيطــر هذا الشعب على الأغيار «الغوييم» بل والقضاء عليهم للسيطــرة على طاقاتهــم وإمكاناتهم كما ورد في سفر التثنية (١٠-١٧): «وأما مدن هؤلاء الشعوب التــي يعطيك الرب إلهك نصيباً فــلا تستبق منهــم نسمة واحدة، بل تقضــي عليهم، الحثيــون والأموريون والكنعانيون والحوريــون واليبوسيون كما أمرك الرب».

وتتوضــح عقيدة دولة إسرائيل بشعار النجمة السداسية المؤلفة من مثلثين وترمز رؤوســ كل مثلث إلى العقل في القمة وإلى المادة والطاقة في رأسي القاعدة، وجعلت المثلث الأعلــى ممثلاً لليهود والصهيونية، والمثلــث الأسفل ممثــلاً للأغيار، وهكذا يصبح العقل الإسرائيلي في أعلى النجمة مهيمناً على الطاقة والمادة في العالم كله.

ومــازال هــذا الشعار رمــزاً للعقيدة التوراتيــة التــي تبنتهــا الصهيونيــة في إسرائيــل والتي تؤكد عقائديــاً أن العقل اليهودي هو وحده، بوصفه مقدساً وإلهياً ، هــو القادر على قيادة العــالم بإمكانياته الواسعة.

ولقــد اعتمد شمعون بيريــز في كتابه «الشرق الأوسط» على هذا الشعار عندما اعتقد بكل صلف أن الشرق الأوسط يحتاج إلى العقل اليهودي العبقري لقيادة سياسة الشرق الأوسط الاقتصادية.

وواضح أن التــوراة يخلط في تصنيف الأمم ولا يميــز بــين الساميين وغيرهم، حتى تورط باعتبار الكنعانيين واليبوسيين أعــداء لا بد مــن قتلهم مع أنهــم أصل الساميين، وبذلك جعلهم المؤرخون أعداء السامية.

ويصــل حقد التوراة على الأغيار، بأن أمر بقتــل الأطفال: «اقتلــوا كل ذكر من الأطفال، وكل امــرأة عرفت رجلاً.. (عد ٣١-١٧-١٨).

ولقد عاقب الرب الملك شاؤول بالموت لأنــه لم ينفذ أوامره التــي وردت في سفر صموئيــل الأول: «فــالآن اذهــب واقتل عماليــق.. ولا تقف عنهم بل اقتلهم رجلاً وامرأة وطفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً وجملاً وحماراً»

وكذلــك أمر الرب بقتل هارون ثم قتل موســى وجعل القيادة إلى يشوع الذي قتل موسى بيده وحل محله في قيادة المصريين التائهين في سيناء، ورضي الرب عن يشوع لأنه نفذ أوامره.

«احرقوا المدينة بالنار (أريحا)، واقتلوا كل مــن فيهــا من رجل وامــرأة من طفل

وشيخ، حتى البقـر والغنم، والحمير بأمر إلههم يهوه» يش (١٦-٢١).

ولقد رفضت المسيحية هـذه العقيـدة الشريرة في النظـر إلى الأغيـار وورد في رسالـة القديس بطرس الثانية: «زيدوا على إيمانكم بالفضيلة، وعلى الفضيلة بالتعقل، وعلى التعقل بالتقوى، وعلى التقوى بالمودة الأخوية، وعلى المودة الأخوية بالمحبة».

وأدان القرآن الكريم بني إسرائيل في سورة المائدة: «من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل، أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً..»

ولا بد أن نتذكر هنا وصايا الخليفة أبي بكر الصديق إلى المسلمين والمطابقة لهذه الآية الكريمة.

وتوسع كتاب التلمود في تأكيد سلطوية اليهود على الأغيار (الغوييم)، ويرى أن العقيدة اليهودية تقوم على أنه من واجب اليهود مقاومة تسلط الأغيار أي باقي أمم الأرض، حتى تصير السلطة لليهود وحدهم على العالم، ويتوعد التوراة والتلمود اليهود أنهم إذا ما أخفقوا في سيادة العالم، سيعيشون على هامش الحياة أذلاء في المنفى والأسر.

ويحض التلمود اليهود على ممارسة الحرب المستمرة ضد باقي شعوب العالم، حتى ينتقل لهم الثراء والسلطان من جميع الأغيار. وعنها يتاح للناس الدخول في

الدين اليهودي أفواجاً. ولقد نبه موسى مندلسون (١٧٢٩-١٧٨٦) إلى أن اليهود سجنوا أنفسهم في غيتو فكري قبل سجنهم في غيتو اجتماعي.

واعتمدت بروتوكولات حكماء صهيون التي وضعت كخطة في مؤتمر بال ١٨٩٨. وتنص هذه التعاليم والخطط على دعوة اليهود للسيطرة على العام أجمع، وتأسيس حكومة ملكية استبدادية مقرها أورشليم أولاً، ثم تستقر إلى الأبد في مدينة روما.

ونصت هذه الخطط على ضرورة المباشرة بتنفيذ هذه التعاليم، بعد أن عاش اليهود زمناً طويلاً، شتاتاً في بلاد المنفى. وعندما نشرت هذه التعاليم المسربة باللغة الروسية، انفضحت النوايا العدوانية والاستعمارية للصهيونية القائمة على الحقد والكراهية للأغيار، والعقيدة بحق اكتساح العالم للاستيلاء على مقاديره، عندها قامت السلطات الروسية باعتقال زعماء اليهود وأمرت بإعدامهم. وينسب المؤرخون الإسرائيليون أنفسهم أنَّ المحرقة كانت نتيجة لتلك العقيدة الصهيونية بالاستيلاء على خيرات العالم وأرضه.

لقد كانت فضيحة البروتوكولات سبباً في تشديد النفور من الوجود اليهودي في بلدان العالم حيث سعى قادتها إلى عزلهم.

وكان الغيتو ضاحية محددة في المدن الكبرى تكاد تكون محصنة يعيش فيها اليهود منعزلين عن المجتمع المحيد بهم ويتحدث عبد الوهاب المسيري عن انتقال اليهود من مرحلة الكمون إلى مرحلة التجمع في ضاحية تعزلهم عن الأغيار في غيتو تضم مجموعات من اليهود تفصلهم عن المجتمع لممارسة وظائف قتالية وتجارية والاضطلاع بوظائفه كريهة أو مشبوهة.

لقد دفع نفور العالم في أوربا من اليهود والارتياب بنواياهم إلى تشجيع هجرتهم، وكان وعد بلفور قد سهل لهؤلاء الادعاء بأن فلسطين أرض بلا شعب وأن اليهود شعب بلا أرض.

علماء العالم يناهضون التاريخ التوراتي:

لم تكن عقيدة شعب الله المختار وحقه بقيام دولة تكون منطلقاً لقيادة العالم مقبولة من المفكرين والمؤرخين الأثريين، وقد تبين أن التاريخ التوراتي لم يكن واقعياً ولم يتحقق أثرياً.

وكان من أوائل الفلاسفة الذين ناهضوا الحق الأسطوري المزعوم الفيلسوف اليهودي باروخ سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧). ورد في كتبه «أن اليهودية ليست وطناً ولا قومية، ولا جنساً ولكنها عقيدة وشريعة يمكن ممارستها في أي مكان مع بقاء اليهودي مواطناً مخلصاً لوطنه ومسقط رأسه.. ثم يقول: إن الرب لم يشترط لصحة الصلاة أن يسمعها من اليهود في أورشليم، وأن المعبد اليهودي في أمستردام بالنسبة له معادل تماماً عند الرب لهيكل سليمان في فلسطين».

وكان الرد اضطهاد هذا الفيلسوف وهجرته من أمستردام ليعيش في قرية صغيرة تسهل على تلاميذه حراسته من المتعصبين السفاحين. وهناك استمر في نشر مذهبه، يعيش بممارسة صناعة العدسات البلورية.

ويؤكد علماء الآثار وعلى رأسهم بوتشلاتي أن التاريخ التوراتي لم يعد قادراً التعامل مع علم الآثار الذي لم يستطيع أن يؤكد أي حدث من أحداث التاريخ التي وردت في العهد القديم.

ويجمع علماء الآثار على ما أورده العالم تومسون «لا يقتصر الأمر على أن علم الآثار لم يبرهن تاريخياً ولا على أي حدث واحد من أحداث القصص المتعلق بالأجداد الأوائل (أي آل إبراهيم)، بل لم يبين أنَّ أيَّاً من تلك القصص محتملة».

ولقد أكدت اكتشافات إيبلا منذ عام ١٩٧٥ على عدم تطابق التاريخ التوراتي مع هذه المكتشفات وبخاصة بعد قراءة الألواح الطينية التي عثر عليها في المكتبة الملكية.

كما أن أعمال التنقيب التي يجريها علماء الآثار الإسرائيليين في فلسطين المحتلة، لم يؤكد أبداً أي حدث توراتي ولم تكشف عن أي أثر للهيكل المزعوم.

في إسرائيل مجموعة من المؤرخين والأساتذة الجامعيين في التاريخ وعلم الاجتماع ظهروا تحت شعار ما بعد الصهيونية، وقد نشروا أفكارهم باللغة الإنكليزية خارج إسرائيل، معتمدين على الأرشيف الإسرائيلي الذي فتح وكشف عن الأعمال القتالية المجرمة التي قام بها الجيش الإسرائيلي في لبنان وفلسطين. وأعلن أحدهم المؤرخ إيلان بابي أنه يجب إعادة كتابة التاريخ الإسرائيلي لكي نسجل الكلام عن الضحايا والمحرومين من العرب ومن اليهود المهاجرين من البلاد العربية وقد نظر إليهم الإسرائيليون على أنهم مجرد مادة إنسانية.

وتوسع هؤلاء في ذكر الدمار والموت والتشريد الذي أصاب العرب من جراء إنشاء دولة إسرائيل ويفضح المؤرخ بني موريس سياسة بن غوريون في عملية الترحيل Transfer والتي تحققت بتهجير مليون فلسطيني عن أرضهم بعد مجازر قبية وديرياسين وغيرها ويؤكد إيلان بابي أن المحرقة تحولت إلى سلاح انغرس في صدور الفلسطينيين الأبرياء، كما يؤكد أن الادعاء بالشعب المختار أخذت طابعاً عنصرياً عدائياً.

خلال الحفريات الأثرية المكثفة في فلسطين والأردن وسورية، بحثا عن شواهد تؤكد ما ورد في التوراة، تبيّن للعلماء أن التوراة تاريخ ديني، وأن علم الآثار تاريخ موضوعي، وليس من علاقة بين أحداث التوراة الدينية وأحداث التاريخ الحقيقية التي تؤكدها وتكشف عنها حتى اليوم الحفريات الأثرية، تمّ ذلك بجهود علماء الآثار العالميين، ولم يستطع علماء الآثار الإسرائيليون ومنهم سياسيون، تقديم أي دليل يؤكد التاريخ التوراتي.

وأعقب هذا الانتصار الأثري التاريخي، ظهور دراسات تبيّن أن تاريخ التوراة حدث خارج إسرائيل، وحجة هذا الرأي أن حركة التاريخ التوارتي لا تنسجم مع جغرافية المنطقة من العراق إلى الشام وحتى مصر.

علم الآثار كمصدر موثق للتاريخ

كان عالم الآثار أحدَ رجلين، إما عالم يبحث عن الحقيقة التاريخية من خلال البحث والكشف، أو إرسالي يحاول تأويل المكتشفات لمطابقتها مع التوراة ولابد من القول، إن عدداً من الارساليين مازال يتابع مهماته ضمن نطاق المعاهد والبعثات التوراتية المعروفة لدينا، ومازالت أبحاثهم التي تنشر في مجلات توراتية خاصة صريحة في أهدافها الإرسالية التي كثيراً ما تتعارض مع الواقع التاريخي المكتشف. ولكن لابد من القول أيضاً إن الكشوف الأثرية على دقتها وصحتها ليست كاملة وليست نهائية، فما زلنا ننتظر المزيد من الكشوف التي تلقي ضوء جديداً على الماضي البعيد، ورغم هذا فإن حجم المعرفة التوراتية لم يصل بعد إلى أوليات المعرفة التاريخية العلمية الراهنة.

لقد كان التوراة مصدراً تاريخياً وحيداً عن العهد القديم عندما كانت المكتشفات الأثرية معدومة. وكان الاعتقاد أن ما ورد في التوراة من أزمنة وأمكنة إنما يعود إلى فجر التاريخ الذي كان محصوراً في هذه المنطقة من الرافدين إلى النيل، المنطقة

التي كانت تشكل رقعة العهد القديم. ومع أن هذه الرقعة اشتملت على أقدم الحضارات وكانت مسرحاً لأحداث تاريخية لا حصر لها. فإن التوراة لم يتناول هذه الحضارات وهذه الأحداث بل ركز على أحداث شخصية ضيقة أو عارضة لا قيمة تاريخية لها.

قدمت المكتشفات الأثرية أعداداً ضخمة من الرقم المسمارية والأختام والشواهد التي عرفتنا بتاريخ طويل وحضارات متعددة ظهرت في بلاد الرافدين ومصر وسورية. ولان معرفتنا هذه ترتكز على شواهد ووثائق أصلية، فإنها معرفة علمية لا مجال للطعن بها، على عكس أخبار التوراة فهي سردية متأخرة عن تاريخها اختلط فيها الوهم والغرض، فلم يعد بالامكان اعتبارها علمية موثقة.

لقد عاصر مدونو التوراة فترة محددة من التاريخ تعود إلى عهد السبي، فكتبوا عن الأحداث والوقائع القريبة منهم والتي تعود إلى العهد الآشوري والتاريخ الكلداني. ثم نلاحظ انقطاعاً في تتابع الأحداث، لكي نقرأ شيئاً من تاريخ اليونان في الشرق في إصحاحي المكابيين كتبا في فترة المكابيين ٣٧/١٦٧ ق.م باللغة اليونانية أصلا. ولكن المؤرخين لا يستطيعون الاعتماد كليا على ما ورد في هذا التاريخ، فكثير من الأحداث الواردة فيه لا تطابق الواقع المكتشف.

أما الأحداث الأخرى فهي روائية مستمدة من مصادر مختلفة، وقد حملت طابعاً أسطورياً. عندما كانت أصولها تعود إلى أساطير قديمة، أو طابعا قدسيا عندما كانت تتحدث عن أشخاص ترفعهم أفعالهم وحتى أخطؤهم إلى مرتبة النبوة، فهم محميون لنسبهم الإسرائيلي المقدس.

وإذا تجاوزنا القسم الأول البنتاتيك إلى القسمين الآخرين النبييم والكتوبييم، فإننا نقرأ أخباراً لا أهمية تاريخية لها، بل هي عرض لأخبار شخصيات يهودية، أو هي كتابات شاعرية تحوي كثيراً من الصور الفاضحة.

علماء الآثار ينتقدون كتاب العهد القديم:

أصبحت إسرائيل خارج التاريخ والجغرافيا، نتيجة البحث والتنقيب الأثري الذي تقوم به مجموعة من العلماء الإسرائيليين مما يؤدي إلى فشل المحاولات السياسية لدعم وجود إسرائيل بالوعد الديني والحق المزعوم،

يقول العالم والمؤرخ ويلزWells «لا

أحد يؤكد أن أرض الميعاد وقعت يوماً بيد العبرانيين اليهود. لا قبل النفي ولا بعده، وفي عهد الملوك فإن الملك سليمان لم يكن أكثر من حاكم صغير يحكم مدينة صغيرة، وكانت دولته هشة انهارت بعد موته ولم يكن سليمان يهودياً ولا عبرياً، بل كان كنعانياً بلغته وعقيدته. ولم يترك منشآت وحضارة، وليست المبالغة التوارتية عن عهده إلا وهماً وكبرياءً. لقد كان سليمان ضعيفاً أمام غيره، فكان مجرد مساعد للملك الفينيقي أحيرام الصورى الذي بنى له (الهيكال). وكان على ما يبدو بناءً بسيطاً لم يبق له أثر، كما أن عهد الملوك لم يتأكد أثرياً».

ويقول العالم مندنهول: «إن عهد الملوك كان كنعانياً وثنياً وانهارت دولته بسرعة. ويعزو التوراة هذا الانهيار لغضب يهوه على سليمان «لأنك لم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها» (ل ١-١٣) وحتى قبيل النفي لم تكن العقيدة اليهودية واضحة ولم يكن التوراة قد كتب بعد.

ففي فترة النفي في بابل ٥٨٦-٥٣٩ ق.م تكونت الديانة اليهودية-التي تقوم بوضوح على إدانة الإيمان بالإله العالمي الذي آمن به موسى فعلاً أو الإله الذي عبده سليمان، والإيمان بإله آخر نسب إلى موسى وهو يهوه، وجعلوا إبراهيم جسراً بين أدبيات المنطقة الرافدية التي نشأ فيها، وبين تاريخ الأرض المقدسة التي انتقل إليها. وربطوا بين دينهم ودين إبراهيم على الرغم من اختلاف الآلهة. وفي التوراة نداء إلهي لموسى «يقول لبني إسرائيل، يهوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله اسحق ويعقوب أرسلني إليكم».

ومن الواضح أن يهوه لم يكن رب العالمين ولم يكن رب إبراهيم بل كان إلهاً خاصاً بشعب، ولم تعرف المنطقة المقدسة هذا الإله بل كان (إل) هو رب السماوات والأرض. وجميع الأسماء التي تنتهي باسم (إل) مثل ميكائل إسماعيل إسرائل حزائل.. تؤكد هذا الانتماء. ولقد ظهرت هذه الأسماء منذ الألف الثالث واستمرت حتى اليوم.

لقد ظهر اليهود في القرن الخامس ق.م على أرض الكنعانيين. وكان نبوخذ نصر قد نفاهم كغيرهم من المنفيين بعد احتلاله مناطق واسعة. وكان لابد لهذه الزمرة من البحث عن أرض بعد أن أطلق سراحهم قورش الأخميني سنة ٥٣٩سنة ق.م، فأدخلوا في توراتهم قصة الوعد الذي قطعه يهوه بالأرض من النيل إلى الفرات. ولعل المنفيين في بابل لم يرجعوا

جميعاً، وقلة منهم خرجت من بلاد الرافدين وانتشرت في أنحاء مختلفة ومنها فلسطين، ولكنهم لم يستطيعوا إقامة دولة فيها، ولعلهم مارسوا عباداتهم، وليس من أثر يؤكد وجودهم فيها إلاَّ كمجموعة دينية كانت كثيراً ما تتعرض للاضطهاد، وبخاصة خلال حكم الروماني هيرودوس الذي يقال أنَّه بنى لهم هيكلاً.

لقد حاول الأثريون التوراتيون مثل (أولبرايت ودوفو) تحديد تاريخ وجود إبراهيم الخليل في القرن ١٩ق.م. وذلك بالمقارنة والاستقراء. كذلك تم تحديد تاريخ وجود موسى بعد عهد اخناتون أي في عام ١٣٥٠ق.م تقريباً. ولقد تأكد لجميع الأثريين العلمانيين أنه لا علاقة بين أعقاب إبراهيم وبخاصة يوسف الذي استقر في مصر وبين موسى، وكذلك أجمعوا على نفي العلاقة النسبية بين موسى وبين داوود وسليمان. كما تبينوا الفرق بين مفهوم التوحيد عند كل من هؤلاء الأنبياء، والفرق البّين بين العقيدة التوحيدية وبين عقيدة اليهود أو عقيدة يهوه.

فليس اليهود من أعقاب إسرائيل (يعقوب) وليس ربهم هو ربُّ إبراهيم أو رب موسى، ولم تبين البرديات التي تضمنت تاريخ مصر القديم أي وجود لبني إسرائيل أو لليهود على أرض مصر.

إن هذه الحقيقة العلمية تتأكد بقوة، نتيجة الأبحاث التاريخية والتنقيبات الأثرية التي تقام في فلسطين المحتلة بقيادة علماء من العالم ومن إسرائيل ذاتها، ولقد كان دافع الإسرائيليين في التنقيب الأثري هو تأكيد وجودهم على الأرض المحتلة، وتثبيت ما ورد من تاريخ إسرائيل ومن أساطير ومطامع تتركز في ما أورده كتاب التوراة في سفر الرؤيا من نبوءة بظهور المسيح المنتظر الذي سيقيم مملكة الرب في الأرض والتي ستدوم ألف عام، ومن الوعد الذي قطعه الرب يهوه لإبراهيم بمنحه الأرض من النيل إلى الفرات، وذلك لتبرير قيامهم دولة إسرائيل لتدوم ألف عام على أرض تقع بين النيل والفرات.

وسنرى أن جميع الحفريات الأثرية التي أجريت في المنطقة كلها وبخاصة في سورية والأردن ثم في إسرائيل، لم تقدم أي دليل على الوجود الإسرائيلي تاريخياً أو على اعتبار هذه المنطقة الجغرافية هي أرض إسرائيل. أما الحجر المؤابي، وهو نصب حجري عليه نقش نص ملك مؤاب ميشع، يتحدث فيه عن حروبه مع إسرائيل، وعن طرد سكانها خارج مؤاب. فلقد

شـك العلماء بنص هـذا النقش للتأويل والإضافة التي تمّت فيه بسبب زوال كثير من الكلمات.

فشل البحث عن تاريخ إسرائيل:

مازال أضخم إسفين استعماري ثقافي دق في صـدر البلاد العربيـة، هو اسفين إسرائيـل، فـإذا كان الاتفـاق بين الشرق والغـرب جاهـزاً لإعلان قيـام إسرائيل في مجلس الأمم المتحدة، فـلأن الثقافة التوراتية التي لم يكن في العالم من يعارضها ، كانت سبب قيام هذه الدولة على أنقاض دولة عربية الطابـع منذ عهد الكنعانيين اليبوسيين وخلال أربعة آلاف عام.

قبـل الخمسينات لم يكن أمام الأثريين الذيـن يبحثون في تاريـخ الشرق القديم مـن مصادر إلا ما رواه التوراة، وكان أكثر المتحمسين للمصـادر التوراتية، الأثريون والمؤرخون مـن أمثال: أولبرايت وأهاروني وغلـوك الذين اعتمـدوا التصنيف على هدى الأحداث التوراتية، فعندما اكتشفوا تحصينات في القدس نسبوها إلى داوود. وكذلك نسبوا موقعا في تل المتسلم اعتبروه اسطبـلات سليمـان.. علـى أن جميـع هـذه التأويلات الوهميـة التي صفق لها التوراتيون بحماسـة، لم تلبث أن تراجعت أمـام دراسـات علمـاء الآثـار بعد عام ١٩٥٢.

بـدأت الحفريات الأثريـة في القدس منـذ عـام ١٨٦٧ بعـد إنشـاء صندوق الاستكشـاف الفلسطيني، وكانت بإشراف السـير وارن بحثاً عن مدينة سالم في عهد اليبوسيين. ثم قامـت بعثة بريطانية سنة ١٩٠٩-١٩١١ تحريـاً عن الهيكل والقصر في عهـد سليمـان. وتابـع الأب فانسنت الحفريات بحثـاً عن نفق يؤدي إلى خارج الأسوار، وادعـى أن الجدار الجنوبي من سـور الأقصى يعـود إلى عهـد سليمان. وفي سنـة ١٩٢٣-١٩٢٥ تم اكتشاف سور وبـرج نسـب إلى داوود، وفي كل مرة كان المنقبون يربطـون مكتشفاتهـم بالتاريخ التوراتي، دون الاعتماد على تاريخ الفخار كان المنقبـون يعتمـدون علـى ما ورد في سفر الخـروج وسفر يشوع (الإصحاح ٧-٩-١٠)، وفيـه أن العبرانيـين خرجوا من مصـر بقيادة موسى، ثـم تاهوا في سيناء وعنـد مرورهم من شرقي الأردن (كما في سفر العدد) احتل موسى والقبائل الاثنتي عشرة جزء من أراضي مؤاب، وبعد مقتل موسى من جماعتـه في موقع يسمى نبو، تولى القيـادة يشوع ابن نـون فقطع نهر الأردن إلى أريحـا، ويخبرنا سفر يشوع أن أريحا كانت مدينة كنعانية مسوّرة ومنيعة، وأن العبرانيـين لم يتمكنـوا مـن اختراق

أسوارهـا إلا بمعجزة من يهوه الذي هدم الأسوار أمام العبرانيين الذين طوفّوا حول الأسوار سبعـة أيام وهم ينفخون بالأبواق احتفالاً، ثم دخلوا أريحـا فهدموها كلها وقتلوا سكانها.

على هدى هـذه الأخبار التي فرضت على الأثريـين باعتبارها توراتية مقدسة، فإن الأثري غارستانغ Garstang خلال حفرياتـه عـام ١٩٣٠-١٩٣٦ في أريحا، أعلن أنـه عثر على شواهـد تؤكد تدمير أريحـا زمن يشوع، إذا اعتقـد أنها كانت محصنـة بسور كان الإلـه يهوه قد هدمه أيام يشوع، كما يقول التوراة.

ولكن السيدة كاتلين كينيون Kenion قامت في أريحـا ١٩٥٢-١٩٥٨ بحفريات هامة كانت سبباً في هزيمة جميع الأفكار والاستنتاجـات السابقـة، وكانت السبب في إعـادة النظر في كل مـا كان يعتبر من المسلّمات، وأثبتت أن سور أريحا المكتشف يعود إلى العصر البرونزي القديم، وأنه لا صحة ولا حجة مـن أن العبرانيين احتلوا أريحا، بخاصـة أن سفر القضاه يتحدث عـن معاركهم وأنه لا يوضـح أنهم احتلوا كل فلسطـين، بل هم الخبيرو الذين كانوا طبقة من المحاربـين المرتزقة ذوي أصول حضارية ولغوية مختلفة كما يرى ميك.

وفي عام ١٩٦٠-١٩٦١ استمرت السيدة كينيون العالمـة البريطانيـة بالتنقيب في القدس وأريحا معتمدة على تاريخ الفخار المكتشف، وكان هذا تحولاً هاماً في تاريخ البحث الأثـري، إذ نستطيع تحديد تاريخ الفخـار أو أي جسم عضـوي عن طريق فحص تبدد أشعة الفحم ١٤ فيه، وخلال خمسة الألف عام.

استطاعت هـذه العالمـة الجريئة أن تنقض جميع الفرضيات التي قامت على المدلـول التوراتي غير العلمي بنظرها، ولم يلبث جميع الذين خالفوها في البداية أن أعلنوا صـواب وموضوعيـة اكتشافاتها. وآخر تقاريرها يؤكد أن ما حسبه المنقبون مـن أسوار وأبراج تعـود إلى عهد داوود، أو مـن قوس اعتقد روبنسـون أنه يعود إلى عهـد داوود أيضاً، هـو خطأ، بل إن جميع هذه المنشآت تعود إلى القرن الثاني الميـلادي، أي إلى العصر الروماني. ونفت أن تكون الأحجار من بقايا الهيكل.

استاء الإسرائيليون مـن هذه النتائج، وقـرروا استئنـاف التنقيـب في المنطقة المتاخمـة لجـدار الحـرم الشريـف، في الزاويـة الجنوبية الغربية، وكان ذلك بعد احتلال القدس سنة ١٩٦٧، وتولى التنقيب العالم الإسرائيلي مازار ومساعده بن دوف،

وكانت المفاجأة باكتشاف آثار ثلاثة قصور ومسجد من العصر الأموي، وأعلنا أن هذه القصور قد استمرت عامرة خلال العصر الأمــوي والعباسي والفاطمــي. ويعترف مازار (إنه لما يدعو إلى السخرية ألا نجد آثاراً ضئيلة من فترة داوود ، كما لا توجد أي مبان أثرية ترجع إلى هذه الفترة .

حضر هــذا الاكتشاف وزيــر الدفاع دايان المشجع والمتابع لعمليات الكشف عن الهيــكل، فأعلن استياءه وطلب نقض هذه الآثار للبحث تحتها عن سويات قد تكشف عن الهيكل، وتابع المنقبون عملهم ولكنهم تأكدوا أن أقدم ما يمكن العثور عليه يعود إلى عصــر هيرودوســ في بدايــة الميلاد، وليس من بين البقايــا ما يعود إلى هيكل هيرودوس، حتى تاج العمود المنسوب إليه فهو يتسم بطابع مصري.

وتابعــت جميع الحفريــات التي تمت في فلسطــين بعد حفريات السيدة كينيون انتصاراتها على الروايــات التوارتية، ولم يستطع الأثريون بمن فيهم الإسرائيليون، تقديم أي دليل أثري على مرويات التوارة، بــل لقد أثبتت هذه الحفريات أن ما ذكره المنقبون مــن تصورات تتعلــق بما سمي قلعــة شاؤول في تل الغســول، وما يسمى بتحصينات داوود في القدس، أو إسطبلات سليمان في تل المتسلّم، هي كلها تصورات وهمية قام الأثريــون بافتراضها، ولم تكن هناك ثمــة آثار تعود إلى عهــد داوود أو سليمــان، وأن بــرج داوود يعود إلى الفترة الهلنستية وأنــه لا وجود لإسطبلات تعود لزمن داوود.

مكتشفات أثريـة تنفـي وجـود الهيكل وتشكك بالتوراة

يعتمد علم الآثار في تقسيماته الشائعة على مــا يثبت من اكتشافــات حضارية. وجميع المكتشفات التي تمت في فلسطين والأردن لم تقدم لنا أي إثبات على حضارة عبرانيــة، بل هي الحضارة الكنعانية التي كانت سائدة وزاهرة، وإنَّ العبرانيين الذين سكنوا فلسطين كانوا أقلية عاشوا في بيوت بدائية واستعملوا الأساليب التي تعود إلى العصر البرونزي الحديث.

يذكر التوراة أنــه في طرف على جبل موريــا في مدينــة القدس، كانــت مدينة صهيون التي عرفــت باسم مدينة داوود، وفيهــا نشــأت أورشليــم ضمــن مساحة صغــيرة بنى عليهــا الملك سليمــان سنة ١٠١٣ق.م هيكلا. تم ذلك بمساعدة ملك صــور أحيرام، ولقد أطنب التوراة بوصف هذا الهيكل الأول الذي هدم سنة ٥٨٨ق. م مــن نبوخذ نصر، ويذكر أن هذا الهيكل

أعيد بناؤه بشكل متواضع سنة ٥١٦ق.م. وفي عصر هيرودوس الذي نصبه الرومان ملكاً، أعاد بناء الهيكل، وقد بالغ العالم (دوفوغيه) بوصف تفاصيل هذا الهيكل استناداً إلى التوراة وإلى الوصف الذي أورده المؤرخ (يوسيفوس)، ولقد هدم الرومان هذا الهيكل بأمر (تيتوس) سنة ٧٠م فأين هي آثار هذه الهياكل؟

إن هذه الأعمدة والتيجان والسواكف والواجهات الحجرية الضخمة التي وصفت، لم يعثر على أي منها رغم التنقيب الكثيف، مع أن الأحداث التي تلت لا تبرر أبداً فقدان أي أثر للهيكل القديم الذي يعود إلى سليمان أو الهيكل الذي يعود إلى عهد هيرودوس. لقد يئس المنقبون من العثور على آثار الهيكلين، وتساءلوا ما إذا كانا قد بنيا من الطين والآجر، أو لعله لم يكن من هيكل بل مجرد مذبح، أو أن أحجارهما قد أعيد استعمالها في أبنية محدثة؟

استمر هاجس البحث عن الهيكل يشغل وزارة الأديان ومصلحة الآثار في إسرائيل، وكثيراً ما حاول الإسرائيليون التنقيب تحت الحرم الشريف مما يؤثر على بناء قبة الصخرة والأبنية الإسلامية الأخرى في الحرم الشريف. ولم تستطع أعمال التنديد وقرارات الشجب والمنع التي وجهتها منظمة الأمم المتحدة، أن توقف أعمال البحث عن الهيكل في منطقة الحرم.

إن العثور على آثار تعود إلى عصر الحديد ولا تنتسب إلى التاريخ التوراتي، أصبح يفزع إسرائيل، ويدفعها إلى التعتيم على نتائج التنقيب الفاشلة. فالفشل في العثور عل أثر الهيكل، يعني أن مدينة داوود لم تكن حقيقة ،وأن عدم اكتشاف هيكل (هيرودوس) يعني أن اليهود لم يتمتعوا بعهده باعتراف السلطة الرومانية، بل إن التوراة يذكر أن هيرودوس كان أكثر الحكام بطشاً باليهود، وهذا يتناقض مع القول بتشييد هيكل لهم لا نظير له،لم يعثر على أي أثر لهذا الهيكل.

فشل آخر التنقيبات الإسرائيلية

لم يكف النشاط الأثري الصهيوني عن البحث عن تاريخ اليهود في فلسطين، فمنذ عام ١٩٢٥ اهتمت الجامعة العبرية بالتنقيب الأثري. وكان سوكنيك Sukenik أول من نقب عن الآثار، وهو والد الجنرال إيغال يادين، وبعد أن يَئِس من بحثه التوراتي، اتجه للبحث عن القبور اليهودية في العصر الروماني الميلادي أي في القرن الثاني والثالث. ثم قام يادين

نفسه بحفريات في حازور (قرب الحوله) بين عامي ١٩٥٥-١٩٥٨.

وفي دراسة موسعة شاملة أصدرتها دورية فرنسية مشهورة هي «الملفات الأثرية» Les dossiers d ،archeolagie، Paris No--١٦٥-١٦٦. خصصتها لمدينة القدس تاريخياً وأثرياً. اعتمدت على الأثريين الإسرائيليين أنفسهم، وعلى نتائج تنقيباتهم في مواقع مختلفة، ولقد عرضت المجلة مجموعة هامة من الصور التي تمثل مواقع التنقيب ونتائجها. وليس في هذه الدراسات والصور ما يشير أو يثبت الوجود الإسرائيلي والتاريخ الإسرائيلي في هذه المنطقة. وفيما يلي عرض لأهم ما ورد في هذه المصنفات.

يعترف الأثري الإسرائيلي بروسحي، أن التنقيب الأثري قبل حرب ١٩٦٧، كان مرتبطاً بالسلطة الأردنية وكان الأثريون ينقبون موضوعياً. وبعد ذلك التاريخ يعترف أن السلطة الإسرائيلية وجهت التنقيب الأثري نحو مدينة القدس وحصراً في ما يسمى بمدينة داوود وفي المنطقة التي يعتقدون أن الهيكل أنشئ عليها، مع البحث في الأحياء اليهودية القديمة، ويقدم هذا الأثري ثبتا بالتنقيبات المتعاقبة التي تمت في هذه المناطق مبتدئاً بأعمال ١٩٦٠ التي قامت بها السيدة كينيون في جنوب الحرم في بساتين الأرمن، وقرب بوابة دمشق، وفي منطقة المرستان.

وقام الأثري الإسرائيلي أفيغاد بالتنقيب في الحي اليهودي بالقدس القديمة وفي القلعة. ثم قام بروسحي نفسه بمتابعة التنقيب في بساتين الأرمن وفي سفوح الأسوار الخارجية. وهناك أعمال وحفريات أخرى قام بها أثريون إسرائيليون من أمثال شيلوح وبركاى، اهتمت بالمدافن الأقل قدماً.

ويعترف بروسحي بعدم العثور على آثار محدده، بل حتى على أحجار منحوتة يمكن أن تنسب إلى سور أو هيكل أو قصر، ويعزو ذلك إلى كثافة المباني اللاحقة، وبخاصة تلك التي تعود إلى العهود الإسلامية.

ويقول: « لم يعثر أبداً على أي أثر أو شاهد للهيكل أو القصر، وإنما هي مساكن شعبية».

ويتحدث عن قوس روبنسون الذي ادعاه مازار، فنفى أن يكون هذا القوس قنطرة للعبور فوق الوادي باتجاه الهيكل. ولم يعثر فيما عدا هذا على أي أثر لمنشآت أقيمت في عهد هيرودس. بل عثر في منطقة المدافن على كتابات آرامية لا تدل أبدا على علاقة بالعبريين، وهي تعود إلى عام ٤٠م.

ويتحــدث الأثري المشهــور مازار، عن تنقيباته الطويلة الأمد حول الحرم والتي لم تقــدم لــه أي سند توراتــي، مما دفعه للعــودة إلى الرسائل التــي ظهرت في تل العمارنة سنــة ١٨٨٧ فيقول: «منذ القرن الخامســ عشــر ق.م. كانت بــلاد كنعان جزءا من الإمبراطوريــة المصرية. ويثبت ذلك مــا تضمنته وثائق قصر أخناتون في تل العمارنــة والتي تعود إلى القرن الرابع ق.م وقد أوردت اسم «عبد هيبا» ملكاً على القدس، وهو اسم لأسرة حورية جاءت إلى المنطقة في ذلك الزمن».

ولكن رسائل تــل العمارنة التي وردت من الشام إلى مصر كانت مكتوبة بالكتابة المسمارية وباللغــة الأكادية، مما يؤكد أن السلطــة في القدس كانــت سورية حسب مازار الــذي يتابع قولــه: «وكانت حدود سلطان هذا الملك (عبد هيبا) ليس القدس الحالية فقــط، بل الجبل حتى حدود رام الله في الشمــال، وبيت لحم في الجنوب. وموضــوع رسائل تــل العمارنــة يتضمن الحرب التي شنها عبد هيبا على الخبيرو، ومساعدة المصريين له بعد أن زار فرعون، واستقر حكم هذا الملك بعد قلق وتراجع، ويقول مازار: «على الرغم من وضوح هذه المصادر، فإن السيدة كينيون في تنقيباتها في الستينات،لم تعثر على ما يطابق رسائل تــل العمارنة وكذلــك كان نصيب الأثري شيلوح». ويذكر مازار:

«في بدايــة عصــر الحديــد ١٢٠٠-١٠٠٠ق.م (عصر الملوك)، يتحدث التوراة في سفر التكويــن أن النبي إبراهيم باركه مليــك صادق ملك ســالم وكان الإله العلي (إل ايليــون)، وســالم كان اســم القدس.. ويذكر التوراة أيضاً اســم أدونيت صادق كملك على القدس. ولكن التوراة ينظر إلى القدس على أنها مدينــة أجنبية مسكونة من اليبوسيــين حتى عصر داوود». ونحن نعرف جيداً من خلال أسمائهم ولغتهم أن اليبوسيين هم مــن الكنعانيين العرب، ولم يستطع الأثريون، وحتى الأمريكي المشهور أولبرايــت أن يكتشــف شيئــاً يؤكد هذه المرحلة، علــى الرغم من عثوره على كثير مــن الآثار التي تعود فعلاً لعصر الحديد، ولكنها لا ترتبط بأحداث التوراة.

والمثير للانتباه، أن التوراة لم يتحدث عن معبــد إله اليهود (يهوه) إلا باكتراث قليل، بــل ذكر أن سليمــان لم يكن قلبه مع الرب كمــا كان أبوه داوود، وأنه بنى على الجبل تجــاه أورشليم، معبداً لإله المؤابيين وآخر لإله العمونيين، واستمرت هذا المعابد أكثر مــن ٣٥٠عاماً. (مل،١١: ١-٨) مما يدعو

إلى الاعتقاد أن الهيكل لم ينشأ للعقيدة اليهودية، إذ إن سليمان أنكر عبادة يهوه وعاد لعبادة الإله العليّ، والهيكل لم يكن لعبادة يهوه. ثم إن بناءه وحسب أوصاف التوراة، يشابه الأبنية والمعابد البسيطة السورية في غوزانا (تل حلف) وحماتا (في حماة) وأوغاريت (في اللاذقية) وشمأل (زنجرلي) والساحل الفينيقي. وأبان التوراة أن أحيرام ملك صور أمر ببناء الهيكل وأرسل لذلك عماله، وأطلق عليه اسم هيكال وهي كلمة فينيقية، وكان لصور سلطان ونفوذ على سليمان.

ويتحدث الأثريون عن الأسوار التي تحدد مساحة المدن الفلسطينية من القرن السابع والخامس ق.م. فيرون أن القدس ذاتها لم تكن مساحتها أكثر من ١٦ هكتاراً، وأن مدن إسرائيل ويهودا لم تتجاوز مساحتها ٦-١٠هكتارات، بينما كانت مساحة المدن المعاصرة في آشور أكبر بكثير، فهي تصل إلى ٧٢٠ هكتاراً في نينوى، و٣٦٠هكتاراً في كلح، وكذلك المدن الآرامية مثل حماه وحلف، أو الحثية مثل قرقميش، ولذلك فإن الأسوار الفلسطينية كانت محدودة.

ويتحدث التوراة عن عودة اليهود من المنفى في بابل، بمساعدة قورش ملك الفرس بعد نصف قرن من السبي الأول،وعن عددهم. ويتساءل الأثري رولي خاريش قائلاً «إن الحفر الأثري في القدس، أبان أن عدد السكان خلال فترة النفي لم يتناقص، فهل هذا يعني أن النفي لم يكن صحيحاً، أم أن المنفيين كانوا قلة وليس كما ورد في التوراة»؟!.

ويقول هذا الأثري «إننا لم نعثر على أثر لإسكان جديد خلال عصر الحديد وفي فترة ما يسمى بالعودة، وبقيت المنطقة المسماة مدينة داوود وحدها المسكونة على صغر مساحتها».

وجميع الحفريات التي تهدف الكشف عن عصر الاحتلال الفارسي والحكم الهلنستي، لم تكشف عن آثار هامة، بل نراها من خلال جرار عليها كتابات روديسيّة وأختام باللغة الآرامية، وهي أقدم أختام رسمية وجدت في القدس. أما المباني الرومانية فهي أكثر وضوحاً، ولقد أطلق عليها العامة أسماء توراتية خطأً.

ويقول أفيغاد «إن الحفريات الراهنة في الحي اليهودي في القدس، أغنت معرفتنا عن حضارة المدينة خلال عهد أسرة هيرودس من ٨٧ق.م-٧٠م أي خلال مئة وخمسين عاماً كانت فيه القدس زاهرة العمران واكتشفت بعض الدور المزخرفة

بالفسيفساء والفريسك وهي رومانية الطابع.» ولم يكتشف أي أثر للهيكل أو لوجود يهودي.

ويقول الأثري زافرير: «إن القدس في عام ٧٠م، أصبحت تحت حكم تيتوس الروماني الذي أحرق المعبد وهدم المدينة، ولم يبق منها إلا بعض الأسوار في منطقة الجنوب حيث استفيد منها لحماية جنوده». في ذلك الوقت حملت القدس اسم إيليا كابيتولينا ثم احتل البيزنطيون الشرق، وفي عام ٣٢٦م جاء قسطنطين مع أمه هيلينا لزيارة القدس، وفيها أنشأ الكنائس الأولى وأصبحت القدس منذ ذلك الوقت مركز النشاط المسيحي مع بيت لحم مهد المسيح، ولكن العاصمة كانت قيسارة، ولم تكن القدس أكثر من مدينة مقدسة تعرضت لاجتياح الفرس وتهجير أهلها، ثم تراجعت مكانتها حتى الفتح العربي سنة ٦٣٨م، حيث ابتدأت تستعيد هويتها العربية القديمة التي كانت عليها أيام اليبوسيين، وازدهرت معمارياً. وتعترف الأثرية الإسرائيلية مريام روزن ايليون، أن كل ما نراه ضمن الأسوار يعود إلى الفترة الإسلامية، وتمثل المباني القائمة جميع العهود التي تعاقبت على القدس في العهد الإسلامي.

ولقد تمت حفريات خارج أسوار الحرم من جهة الجنوب، وكان القصد منها اكتشاف آثار الهيكل، ولكن الآثار كانت أموية هي قصور ومسجد أنشأت في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان. حتى جدار المبكى المقدس عند اليهود، فلقد أكدت لجنة البراق الدولية أنه يعود إلى عهود إسلامية.

على ضوء النتائج العلمية أصبح واضحاً أن فلسطين لم تكن لبني إسرائيل، بل كانوا غرباء فيها، واستمر وجودهم قلقا ومحدودا زمنا قصيراً. إذا كان منهم من استمر مقيما خلال الفترة الرومانية والمسيحية وحتى الإسلامية، فهذا لا يعني أنهم أصحاب هذه الأرض، فاليهود في قزوين وفي أي جزء من العالم، كانوا أكثر عددا منهم في فلسطين، ولكن الحق العربي يبدو واضحاً في مرحلتين. المرحلة الأولى أيام اليبوسيين وهم من الكنعانيين أجداد العرب ومنهم الآراميون أيضاً. والمرحلة الثانية تبدأ منذ العهد الإسلامي واستقرت متنامية بتصاعد وتكريم وتقديس خلال أربعة عشر قرناً. ولكن عندما كان اليهود يبحثون عن وطن في أوغندا أو في أمريكا اللاتينية أو موزانبيق، صدر وعد

بلفور عام ١٩١٧ ليجعل فلسطين وطنا قومياً لليهود.

ولكن علم الآثار أصبح أقوى فاعلية من أي وعد أو أية قوة أو أي قرار يصدر عن الأمم المتحدة بإنشاء دولة غريبة على أرض عربية ويدعم وجودها ويدعم الاحتلال المتعاقب فيها.

إن هذا العلم وحده قادر على كشف وتعرية المطالب الإسرائيلية وعلى تأكيد الصفة الاحتلالية. وعلى نفي التاريخ الإسرائيلي كله، ونفي الأحداث الإسرائيلية وجعلها أسطورة وخرافة. ولعلنا استطعنا من موقعنا كمشرف مسؤول على عمليات التنقيب في سورية، أن ندفع بالعلم الأثري أشواطاً في مجال إيضاح هويتنا القومية التاريخية على هذه الأرض الواسعة، وفي مجال الطعن بجميع الأساطير التي خلقت حقوقاً مقدسة أدت إلى إيجاد دولة إسرائيل التي تهدد الوجود العربي في الحرب وفي السلم.

وإذا أصبح علم الآثار أكثر تحدياً لمبادئ الصهيونية، بات لازماً أن تعتمد المجابهة الحدية مع الوجود الإسرائيلي على هذا العلم الذي يتحدث بلغة موضوعية، يبقى أكثر قبولاً في محافل السياسة الدولية، من الأساطير التي عشعشت طويلاً في العقائد الشعبية ،وكانت سبباً في قيام دولة استعمارية غاشمة تطمع بأرض يحدها الفرات والنيل. ■■

☆ ☆ ☆